المبحث الثاني

أولاً: وظيفة الرمز:

لقد استخدام كاتبنا الرموز الكثيرة في نصوصه القصصية القصيرة. وقد حقق بذلك وظيفتين أساسيتين، وهما التعبير من خلال الرمز عن رؤاه الايديولوجية، ولاسيماالرؤيا السياسية وكذلك حقق القيمة الجمالية والفنية في إضفاء طابع أدبي وفني على العمل الأدبي، حيث لم تكن تلك الرموز عبئاً وعالة على النص الأدبي تعقدها حتى لايفهم منها القاريء شيئاً. وأحياناً نجد تلك الرموز بصورة فردية واضحة ودالة من خلال فهمنا وقراءتنا له، وفي أحيان أخرى نتوصل إلى المعنى المقصود من خلال الفضاء العام للنص، لأن الرمز ((لقاء تقاطع شتى المجالات المعرفية، كالدين، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم اللغة، والأنثروبولوجيا، وغيرها)).[1]

استخدم "محيي الدين زنكنة" العديد من الرموز منها الرموز التاريخية، والأسطورية، ورموزاً ذاتية(شخصية) كثيرة، حيث تميز بها نتاجه القصصي، وهو يقربنا من خلالها إلى ماكان يؤمن به من أفكار وآيديولوجيات، ودفاعه عن حقوق الوطن والشعب. كما إننا نجد أن أغلب رموزه تشير إلى الوضع السياسي ومعاناة

(1) نقلاً عن: البنى الشعرية في مسرحيات محيي الدين زنكنة، باوةدين كريم مولود، 211.

الشعب الكردي والشعب العراقي من ظلم النظام، فهو ينقد الحكام ويثبت فكرة الثورة، وتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين طبقات المجتمع والتخلي عن العادات والتقاليد البالية الصارمة غير المفيدة في واقع حياة المجتمع بصورة عامة.

1: الرمز الذاتي(الشخصي):-

ويُقصد بذلك الرموز التي ابتكرها الكاتب فوظفها واعطاها دلالات خاصة، لم تكن معروفة من قبل، مثل الأقنعة التي كان قسم منها تأريخي أو اسطوري، وبعضها الآخر كانت جديدة من ابتكار الأديب، مثل قناع "مهيار الدمشقي" عند"ادونيس"، و"عائشة" عند" البياتي". لأن هذا الرمز((يظهر في إنتاج أديب ما ويتطور في أعماله المختلفة حتى يكتسب أهمية خاصة في جملتها ودلالة مميزة بداخلها)).[1] وتناول الرمز من قبل الكاتب بطريقة غير مألوفة((يأتي محصلة لعلاقة غير مفهومة بين القاص والواقع. وهي علاقة ضياع وتمزق وتناقض نتيجة انعدام التكافؤ، أو التجاوب الأدبي مع الواقع)).[2]

أ: قصة: "الكلب العجوز مغمض العينين":

تتعلق هذه القصّة بالفقر والجوع اللذين يعاني منهما المجتمع بصورة عامة، ولكن القاص قام بتصوير هذه الحالة عن طريق كائن حيواني، وهو "الكلب" الذي يتحول خلال أحداث القصّة والصراع الموجود فيها من رمز يدل على الوفاء والإخلاص المعروف بهما إلى معنى آخر، وهو الخيانة وعدم الوفاء.

لاتنحصر الخيانة في هذه القصّة عند علاقة "الكلب" مع "العائلة أو سيده" الذي اعتنى به ورباه، وأطعمه عندما كان جرواً صغيراً، ثم انقلبت تصرفاته وتحول من كائن وَفيّ إلى كائن يغدر ويخون، بل أراد القاص التحدث عن مظاهر الخيانة كلها سواء كانت خيانة المباديء والقيم، أو خيانة الوطن وبيعه للطغاة، ونجد في القصة الأسباب التي تقف وراء هذا الفعل المشين والمقيت. لأنه من خلال تصرف "الكلب"

(1) نظرية البنائية"في النقد الأدبي"، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، 1968، 312.
(2) التجريب في القصّة العراقية القصيرة، حسين عيال عبد علي، 166.

بهذه الطريقة ينبهنا إلى مسألة الوفاء والإخلاص تجاه ما نؤمن به تحت ظل أي من الظروف حتى حين يمر الإنسان بأصعب مراحل حياته فأنه يجب أن لا يتخلى عمّا يحبه و يؤمن به، ولاسيما عندما تتعلق المسألة بالوطن والدفاع عنه وعن حريته.

لقد عبر القاص من خلال "الكلب" وخيانته عن آيديولوجية سياسية.وهي كيف أن الكلب قام بأفعال مشينة تجاه من كانوا له الأمان والبيت والمأوى، كما أن الوطن هو الأمان والبيت لجميع المواطنين صالحهم وطالحهم.

أحداث القصّة تدور على "كلبٍ" يعيش مع "سيده وسيدته"، الذين يعانون جميعاً من جوع شديد، مضت سبعة أيام وهم على حالهم هذا. وهو يبحث باستمرار عن شيء يأكله أو شخص يشفق عليه من الناس أو من العائلة التي يعيش معها ليعطوه شيئاً يأكله ويخفف من حدة جوعه.

لقد ظل حال الكلب هكذا يعاني من الجوع فضلاً على انزعاجه الشديد من حرارة الجو والشمس التي تلهب جلده بصورة مستمرة وهو ممدد أمام عتبة الدار، والذباب الذي لايكف عن إزعاجه ولايدعه ينام لأنه يجتمع حوله ويحاول أن يمتص لعابه، ومخاطه الدبق الذي يلتمع بين فتحتي أنفه.

وعندما كان مشغولاً بهذه الأمور عاد"سيده" إلى البيت، ولكن من دون أن يحمل في يده شيئاً حتى يعطيه ليأكله، وتذكر الماضي عندما يأتي سيده إلى البيت وينظر إليه بكل محبة ومودة،لكن تغيرت تصرفات سيده معه، لأن "سيده" يعاني من الجوع أيضاً. وليس له عمل ليكسب من خلاله قُوته اليومي ولشدة فقرهم واحتياجهم لم يستطع أن يشتري حذاءً جديداً، لأن حذاءه تهرأ وكان إبهام رجله واضحاً مكشوفاً، وقال للكلب بصوت فيه الغضب والاستياء من حاله ومما يعاني منه بسبب الجوع:-

((السيد: رُحْ.. رُحْ.. أبحث لك عمَّن يطعمك... نحن لم يعد لدينا ما نأكل.. ومن لايجد ما يأكله هو.. لايقدم شيئاً لغيره... هيا.. هيا... تحرك..))..[1]

(1) قصة "الكلب العجوز مغمض العينين" من مجموعة "الجبل والسهل"، 203.

يتضح لنا هنا أنهم يشعرون بالجوع، ولايستطيعون أن يقدموا شيئاً له يأكله لأن من ليس لديه ما يأكله لايستطيع أن يشبع غيره، لذلك طلب منه الرحيل، ولكن الكلب شعر بانزعاج شديد من تصرف سيده معه، إلا أنه يبرر تصرف سيده هذا، فلايمكن أن يعني مايقوله من أعماقه وصميم تفكيره بل قال ذلك، لأنه يعاني من نفس حالة "الكلب" من الجوع.

إن المشاعر التي يحملها "الكلب" في دخيلته من حزن واستياء وغضب كانت مشاعر مخفية دفينه في داخله فاحتفظ بها إلى اللحظة المناسبة لكشفها وبيانها لـ"سيده" بل حاول أن يكتم غيضه وغضبه وأن يتعامل مع الموقف بهدوء وبشكل ودي، فلم يرد أن يشوه صورته أمام "سيده" بل أراد أن يظهر بصورة ذلك الوفي والمخلص الذي عرفه منذ أن وجده.

أما الكلب فقد أظهر مشاعره في حواره الداخلي مع نفسه عندما فكرّ:-

((الكلب: وإذا كنت تخاصم سيدك... لكل صغيرة وكبيرة أو تحاسبه على كل نزوة من نزواته المتقلبة المتغيرة، على الدوام... ستجد نفسك، أيها العجوز المهجور، ملقى في الشارع القائض لاظل تأوي إليه. ولا مخلوق يمن عليك. فكن عاقلاً... وحليماً... وأكثر منه صبراً وتحملاً.. هو المتوتر المستفز.... دائماً)).[1]

أراد "الكلب" أن يؤجل مواجهة "سيده"وأن يتحمله بكل صبر وأن يكون عاقلاً وأن لايحكم على "سيده" في هذه الظروف الصعبة التي يعاني فيها من الجوع. فحاول "الكلب" أن يعرف لماذا لا يعطونه الطعام مثل الأيام التي مضت،وما السبب الحقيقي وراءه، وفي حوار دار بين "السيد" وزوجته عرف"الكلب" أنه بلا عمل وأنه لم يعثر على أي عمل أيضاً. بسبب سنه، لأن أصحاب الأعمال والمقاولين لايريدون الرجال وحتى النساء المسنات، بل هؤلاء يشغلون عندهم الشباب والبنات والصبيان ويفضلون الصبيان الصغار.

(1) قصة "الكلب العجوز مغمض العينين" من مجموعة "الجبل والسهل"، 204.

فعلى الرغم من انتظار السيد في طابور طويل حتى يحصل على عمل لمدة خمس ساعات إلا أنه عاد خائباً ومحبطاً ومنكسراً. وهذا يدل على غضبه وإهماله وطريقة تعامله مع "الكلب". وهذا ما نجده في حوار"سيده" مع "زوجته":-

((الزوجة: ها؟ لا عمل؟ اليوم أيضاً؟

الزوج : لا عمل اليوم أيضاً)).[1]

واستمر الحوار بينهما:-

((الزوجة : ولكنه اليوم السابع ونحن بلا أكل... اليوم السابع يا رجل.

احتد هو الآخر.. قال بغضب موجه إليها إذ لم يتطلع نحوها:

الزوج: وسيأتي اليوم السبعون أيضاً. ماذا أفعل؟ ماذا بوسعي أن أفعل.

الزوجة: حسناً... حسناً لاتغضب.. فقط لا تغضب.

أشفق عليها... سيده وسيدتها.. وراح يشرح لها الحال. دون أن تطلب هي أي شرح.. بنبرة يمتزج فيها الحزن والألم:

الزوج: وقفت في مسطر العمال... تحت نصب البطولة والانتصار حيث يقضي العمال بانتظار العمل... حتى أخذت الشمس... تشويني شوياً. انفضَّ من حولي الجميع.. من حالفه الحظ وقع عليه اختيار المقاولين وأصحاب العمل. ومن خالفه عاد إلى بيته خائباً. وحدي لبدت هناك.. أكثر من خمس ساعات... دون أن يلتفت إليّ أحد...)).[2]

ان هذا الحوار الذي دار بينهما وغضب الزوج من الوضع الذي يعيشان فيه جعل من "الزوجة" أن تفكر بحل أو أن تجد حلاً، ولكن حلها كان مؤقتاً لم يدم طويلاً حين فكرت ببيع ملابسهما في حين لم يبق في البيت شيء إلا باعته "الزوجة" من أجل الطعام كي لايموتا من الجوع. والآن حان وقت بيع الملابس- أي ملابسهما- حيث وجد "الزوج" "زوجته" حاملة سلة بيدها منتفخة فسألها ماذا فيها فقالت في حوار دار بينهما:-

(2) م. ن، 205.

(1) قصة "الكلب العجوز مغمض العينين" من مجموعة "الجبل والسهل"، 205.

((الزوجة: أبيع ما تبقى من ملابسنا. لعلها تعود علينا.. بما يسدّ الرمق.
الزوج: وهل تبقى في البيت... شيء صالح للبيع...؟
قالت وهي تهرب من مواجهته:
الزوجة: ملابس الشتاء.... لسنا بحاجة إليها الآن؟
الزوج: وحين... تحل الشتاء.... هل نواجهه عراة؟
الزوجة: من يضمن بقاءنا حتى الشتاء... يا عيني؟
أمّن على قولها:
الزوج: صدقت. من بوسعه أن يحيا بلا طعام، حتى يرى الشتاء؟؟)).[1]

في هذا المقطع وصل القاص إلى قمة الأزمة وصعوبة الحالة التي يعانيان منها، فصور لنا كيف يصل الإنسان إلى مرحلةٍ هو مستعد أن يبيع حتى ملابسه من أجل لُـُقمة العيش ليسدّ جوعه.

ونجد أن بيع الملابس هو شيء بسيط مقابل أن يبيع الإنسان نفسه وضميره وشرفه وإخلاصه أمام الجوع، وقد حصل هذا الأمر مع أناس كُثر في الحياة عندما استسلموا لرغباتهم المادية من أجل الوصول إلى لذة الإشباع، فعلوا كل شيء حتى بيع النفس والضمير. من هنا اقترب القاص من رمز الإخلاص والوفاء ثم التحول إلى الغدر والخيانة.

لقد وضعنا القاص أمام خيارين عن طريق وضعية "الكلب" وموقفه تجاه ما يعانيه من صراع، وهو إما أن يبقى وفياً، ويموت بسبب الجوع بكل شرفٍ ورأس مرفوع، ونفس طاهرة. أو يقبل أن يكون خائناً ويغدر بمن مدَّ إليه يد العون والمحبة والمأوى ويموت مدنساً وخائناً وجباناً. إن الحل الأول هو الذي يفضله القاص ويريده أن يكون رسالةً يوصلها إلى الجميع وهو الموت بشرف وعدم الاستسلام، بعيداً عن الموت كخائن. وهذا ما نجده في مصير "الكلب" في نهاية القصّة عندما يتحول إلى

(1) م. ن، 206.

الخيانة ويستسلم لرغبته ولا يكون بمقدوره المقاومة، والنتيجة النهائية لكلا الطريقين هي الموت لكن بصور مختلفة.

تبدأ نقطة التحول لدى "الكلب" عندما يسمع من "سيده" وهو يصرخ من شدة الألم الذي يشعر به في بطنه نتيجة شربه الماء وبطنه فارغ منذ أيام من الطعام عندما قال:-

((السيد : هذا الزمن القذر... قد بات زمن كلاب... الزمن، زمن كلاب)).[1]

كان "سيده" يلعن الزمن، لأنه لم يعد زمن الناس، زمن الأبرياء، وزمن الوفاء والإخلاص والمودة ، بل أصبح الزمن مغايراً وبات زمن الكلاب، أي- زمن الخائنين والظالمين- الذين يستغلون كل شيء لصالحهم من خلال قوّتهم، ويخضعون الكل لإرادتهم وقوتهم، ولاسيما الضعفاء أمام المال والسلطة وضعيفي النفوس الذين يبيعون الضمائر مقابل كل شيء.

لقد أصبح "الكلب"واحداً من الذين خضعوا لسلطة "الكلب الأسود" الزعيم القوي والشرير الذي جعل نفسه زعيماً لمجموعة من هذه الكلاب الشرسة والناهبة لكل شيء والجائعة للحوم ودماء الإنسان البريء الذي لاحول له ولاقوة سوى أن يكون ضحية شرّهم وغدرهم.

"الكلب" العجوز الهرم قد تأثر بما قاله "سيده" وراح يخبر فوراً أصدقاءه، أي –مجموعة الكلاب - حيث كانوا يجتمعون في كهف بعيد خارج المدينة ليقول لهم في حوار:-

((الكلب العجوز: يا كلاب.... لقد حلّ... زمننا.

الكلاب: زمننا؟

تساءلت الكلاب كلها، بصوت واحد، ثم تعددت الأصوات بقدر تعدد مصادرها واختلفت نبراتها باختلاف أصحابها، إذ راح كل واحد منهم يسأل من موضعه، بلهفة متصاعدة:

(1) قصة "الكلب العجوز مغمض العينين" من مجموعة "الجبل والسهل"، 207.

الكلاب: أحق ما تقول؟

الكلاب: هل حلّ زمننا فعلاً.....؟

الكلاب: زمن الكلاب... أيها الكلب العجوز...؟

الكلب العجوز: زمن الكلاب... أيها الأعزاء)).[1]

وكأن الكلاب كانت بانتظار هذا الزمن باشتياق، لأن هذا الزمن له أهمية كبيرة عندها، وفي الوقت نفسه كانوا غير مُصدقي هل أصبح زمنها فعلاً أو لا؟، وكانت تسأل "الكلب العجوز" بصورة مستمرة دون انقطاع وهو بدوره أكد الأمر لهم أن الزمن أصبح زمنهم دون شك وحان دورهم ليفعلوا ما يشاؤون. إلا أن "الكلب الأسود" - أي الزعيم- لم يكن متأكداً مثل أصحابه بل هو كثير الشكوك ويمتاز عنهم بأنه لا يشبعه أي شيء، والكل خائف منه حتى الكلاب حوله، سلموا القيادة له حين قال: في حوار مع "الكلب العجوز"وسأله هل أقواله صحيحة ومؤكدة:-

((الكلب الأسود: أهي خديعة أخرى أيها الكلب العجوز.. خديعة تكلفنا.. المزيد من الجهد.. اللامجدي..

الكلب العجوز: لا... لا.... أبداً... أبداً)).[2]

وجاء تأكيد "الكلب العجوز" للخبر الذي نقله إلى أصحابه فأكد لهم أنه لا يكذب عليهم وأن "سيده" لا يكذب في ما قاله أبداً. ولكن بعد ذلك ظهر هذا القول أن لم يكن له أساس من الصحة، ولذلك زاد هذا الخبر الكاذب من غضب الكلاب واثارة جوعها خلال أيام طويلة يشعرون به، وهذا جعل الوضع متأزماً حول الكلب العجوز وأصبحت حياته مهددة بالقتل نتيجة ما قاله من أكاذيب حول زمن الكلاب.

لقد بحثت الكلاب طويلاً عن الطعام في داخل المدينة، وفي العديد من المطاعم التي الخالية من الطعام، وبحثن حتى في المزابل العامة فلم يجد الكلاب شيئاً يأكلونه من عظام أو بقايا طعام. وكانوا يشعرون بالحقد تجاه البشر، لأنهم أصبحوا منافسين

(1) م. ن، 207-208.

(2) قصة "الكلب العجوز مغمض العينين" من مجموعة "الجبل والسهل"، 209.

لهم في أكل طعامهم، أي أن" الإنسان" أصبح متساوٍياً مع " الكلاب"، وكانوا يلهثون ويزدادون جوعاً بعد بحثهم بلا فائدة، وزاد حقدهم على "الكلب العجوز" وكانوا يراقبونه من كل الجهات ويحيطون به من كل النواحي فحاصروه داخل دائرة مغلقة، بحيث لم يعد بإمكانه الفرار وإنقاذ نفسه، لذلك عليه أن يواجه مصيره الذي هو الموت ليكون لحمه وعظامه هدية لرفاقه، فانتظر عقابه من قبل "الكلب الأسود" ليقرر ماذا يفعل به. وفي هذا الحوار يوضح القاص ماكان يفكر به "الكلب الأسود":-

((الكلب الأسود: أتقدر خطورة ما فعلت بنا أيها الكلب العجوز؟

الكلب الأسود: أجَجْتَ شهيتنا إلى اللحم.

توّلى الكلب الأسود الضخم الشرس الإجابة على سؤاله بنفسه بعدما طال انتظاره لها من الكلب العجوز...

الكلب الأسود: لقد هيّجت البركان الخامد في أحشائنا... منذ أيام.

قال آخر...

الآخر: ولن نرضى بغير اللحم.... بديلاً....

قالها أكثر من واحد بتصميم وعناد

وفي دفاع مستميت يائس، راح الكلب العجوز، يتلعثم:

الكلب العجوز: هـ.... هـ..... هـو... هو.. لا..... أنا.... ليس.... أنا..))..[1]

وأقر"الكلب العجوز" في نهاية الأمر باستسلامه من أجل إنقاذ نفسه ولم يدرك خطورة الموقف منذ البداية فلم يتصورأن يصل الأمر إلى القتل وافتراسه من قبل أصحابه، ولكي ينقذ نفسه فكر برمي "سيده" طُعماً للكلاب. وفكرّ بأن صاحب الفكرة الحقيقية هو"سيده" الذي غير أفكاره وجعله يعتقد أن الزمن أصبح زمن الكلاب وأنه حان وقتهم، ودون تفكير بما قد يؤدي إليه هذا الأمر أراد انقاذ نفسه من أنياب مفترسة شرسة فتنازل عن حبه وإخلاصه لـ"سيده" وغدر به لانقاذ نفسه، ويظهرذلك

(1) م. ن، 212.

في حواره مع زعيم الكلاب "الكلب الأسود" الذي حين يقترح الأمر يقودهم بنفسه لينفذوا المهمة عندما قال:-

((الكلب العجوز: هو.... هو.. من يجب أن يدفع الثمن..

قالها متعلقاً بخيوط حياة واهية... تفر من مسامات جلده بعد مقارنة سريعة... أجراها... بين طرفي معادلة تراءت له... يشكل سيده أحد الطرفين... وهو الآخر....

الكلب العجوز: سيدي.. هو الذي كذب عليّ....

أصرّ الكلب العجوز، وأضاف... متجمعًا كل مهارته وحذقه في إغرائهم:

الكلب العجوز: هو... هو أكثر لحماً.. ويكفينا... كلنا.....

ويستمر..

الكلب العجوز: وأنا.... أنا.. بنفسي أقودكم إليه.. الآن..)).[1]

و"الكلب العجوز" لم يستطع الفرار والكذب عليهم في هذه المرة، وعندما احضروا أنفسهم للهجوم على "سيده" في بيته كانوا مطمئنين أن "الزوجة" لم تعد إلى البيت، وهو الوقت المناسب لهم للهجوم، فطلب "الكلب الأسود" من الكلب العجوز القيام بالهجوم عليه اولاً،لذلك نفذ الأمر دون أن تكون له القدرة على الرفض أو التراجع عمّا وعد به، لأن نتيجة التراجع تكون خسارة حياته هو. ويظهر ذلك في الحوار الذي جرى بينه وبين "الكلب الأسود" حيث وجه به الأمر بالهجوم:-

((الكلب الأسود: أو تتلذذ بتعذيبنا أيها الكلب العجوز... أسرع.. أسرع ماذا تنتظر اهجم عليه... قبلما أن نهجم عليك..)).[2]

وعند استعداد "الكلب العجوز" لتنفيذ ما طُلب منه رأى موقفاً إنسانياً نبيلاً من "سيده" فداعبه بحنان واعتذر منه لمعاملته السيئة معه، ولبعض الوقت شعر بأنه ارتخى وقد يكون هناك أمل للتراجع ولكن أوامر "الكلب الأسود" كان لابد من تنفيذها دون تراجع، والكلاب الأخرى أرادوا تنفيذ المهمة عن طريق "الكلب

(1) قصة "الكلب العجوز مغمض العينين" من مجموعة "الجبل والسهل"، 213.
(2) م. ن، 216.

العجوز"بصورة سريعة، لذلك حاولوا أن يُبددوا كل شك موجود في رأس "الكلب العجوز "فأثاروا الشك حول أقوال "سيده" وموقفه وأوهموه أنه لا يمكن الوثوق به مرة أخرى، لأنه يصطدم به مرة ثانية كما فعل في المرة الأولى. عندما قاموا بتحذيره في هذا الحوار:-

((الكلب الأسود: حذار أيها الكلب العجوز، حذار، لا تصدقه... إنها كذبة أخرى من أكاذيبه فقد عرف سيدك طريق الكذب واستمرأه ولن يتوقف... ولا يتراجع عنه...

جمد الكلب العجوز في مكانه... عاجزاً عن اتخاذ قراره.

الكلب الأسود: تذكر أيها الكلب العجوز.. وعدك....)).[1]

وفي النهاية نفذ "الكلب العجوز" مهمته وانقض على فريسته بكل قوة، ودون أية رحمة، وهو يتلذذ من الدم واللحم في فمه، وقد ازداد هو الآخر رغبةً في أكل لحم "سيده" دون أن يفكر بما فعله، إلا أنه لم يفتح عينه، بل أبقاهما مغمضتين، وكان في بداية الامر يريد أن يجرب اللحم من مضغة صغيرة ويكتفي، ولكن كانت الرغبة في الأكل وسد الجوع أقوى من أن يسيطر على نفسه، لذلك جرد نفسه تماماً من كل الذكريات الطيبة والصور التي تبادرت إلى ذهنه وقفل عنه عقله، لكي يستطيع أن يأكل دون تفكير.

ولكن مع ازدياد شعوره بإحساس الشبع شعر بثقل في جسمه، وأنه لم يعد قادراً على التحرك بسهولة فأصيب بشلل تام في كل جسمه، وازداد إحساسه بالعجز عندما سمع صوت الباب وعودة"الزوجة"، فشعر بإحساس مليء بالألم والخجل لما قام به، ولكن الندم في هذه اللحظة لم يفدهُ، لأنه أصبح خائناً وضحى بكل حب ومودة وعشرة السنين. وعلى الرغم من قتل "سيده"وتنفيذ ما أمربه إلا أنه واجه المصير نفسه، لكن بصورة فيها مذلة ومهانة، حيث كان جوعه له الحلّ لو أنه صبر مدة وانتظر "السيدة"

(1) قصة "الكلب العجوز مغمض العينين" من مجموعة "الجبل والسهل"، 216.

التي جلبت الطعام والعظام لكي يأكله، لكنه لم ير العَظْمَة ولم ير"سيدته" ولا بكاءها على زوجها، لأنه مات في النهاية أيضاً.

قد يكون موت "الكلب" عقاباً وضعه القاص لكل من يقوم بالخيانة والغدر، حيث ليس له طريق آخر-أي ليس له خيار آخر- إما الموت بشرف من أجل ما يؤمن به. أو الخيانة والاستسلام لقوة وسلطة الآخر. يشكل هذه المعادلة : -

{ السيد ← الجوع ← عدم الاستسلام ← البقاء وفياً = الموت }

{الكلب العجوز ← الجوع ← الاستسلام ← الخيانة والغدر = الموت }

لقد واجه"الكلب" المصير نفسه على الرغم من سد حاجته من الأكل وإشباع رغبته، وربما كان السبب وراء موته هو أكل لحم "سيده"، كأن القاص يريد أن يقول حتى لو أشبعنا جوعنا من لحم غيرنا أو إشباع رغباتنا وسدّ حاجاتنا في الحياة باغتصاب حقوق الآخرين سنواجه المصير نفسه. لأن ما كسبناه وحصلنا عليه لم يكن لنا، ولم يكن بجهودنا بل كان الحق لغيرنا. بهذا جعل القاص " الكلب" رمزاً للذي باع نفسه للسلطة المستبدة وقوة الشر.

ب: قصص أخرى:-

إن معظم هذه الرموز تدل على معنى المقاومة والثورة ضد الظلم، ورفض الاستسلام، والدعوة إلى التحرر والتحريض من أجل الثورة، وممّا يدل على المقاومة "المبيد"، و"الشمس"، و"الجبل"،"الولادة"، ومن الرموز التي تمثل قوة الشر والظلم: "الثعبان"،والغراب"،و"الكلب الأسود"... وهذه الرموز نجدها في قصص كاتبنا، مثل قصة "الرجل الذي امتهن دراسة الكائنات البشرية"، حيث نجد لفظة "الغراب" مُكررة "إحدى عشرة" مرة. وترمز في القصّة إلى قوة الشر التي تواجه البطل وكل الذين يريدون القيام بالثورة، أو يفكرون بها، وهنا يريد البطل أن يقوم بالمواجهة والثورة ضدّ تلك القوى، ولكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك وحده إذا لم يشاركه الجميع - أي الشعب - واعتبر هذا الأمر بمثابة مشروع يحاول أن ينجزه عن طريق الدراسة، أي دراسة كيفية القيام بالثورة وتحضير جميع الأدوات الممكنة واللازمة لها، لأن

المشروع قد يتعرض للفشل إذا كان بصورة عشوائية غير مدروسة الخطوات، لذلك يجب دراسة ذلك عن طريق المثقفين والشباب والثوار الناضجين، حيث يمثل البطل - أي "القاص" - واحداً من هؤلاء الذين يريدون القيام بها أي - الثورة - بصورة تكون ناضجة ومكتملة وحاضرة بكل قوة في مواجهتهم أو مواجهة الظلم.

و"الغراب" يمثل تلك القوة الظالممة والطاغية ورمزاً للشر، والشؤم في كثير من معتقدات الشعوب في العالم، وكيف يريد "الغراب" القيام بالهجوم على البطل ونتيجة هذا الهجوم يفقد البطل "يده"، كأن "اليد" في صورة الإنسان قد تحول بصورة عجيبة من "يد" كانت تخدم البطل وتكون معه في الظروف والأوقات الصعبة كلها، أما بعد تحول "اليد" إلى خائن لم تعد تستطيع الفرار من القوة التي يمتلكها لم تعد بإمكانها العودة إلى صاحبها - أي البطل -.. وهذا يتضح في الحوار الذي جرى بين البطل و"يده" التي سقطت:-

((البطل : تعالي.

لكنها ابت وقف على مبعدة منها، أخذ يناجيها بحزن:

البطل : ياعزيزتي... أنت جزء مني لقد ولدت معي، وقدمت لي خدمات كثيرة في مجالات مختلفة. وإن فراقك الآن يؤلمني فلماذا تتخلين عني... تعالي... ياعزيزتي.. تعالي...

وقف صامتاً ينتظر جوابها:

اليد: آه... ليتني أستطيع فإن قوة أعظم مني تمنعني...

وأطلقت صرخة عظيمة: آه...

صرخ هو الآخر: آه...)).[1]

لقد سقطت"اليد"تماماً ولم تعد بإمكانها العودة إلى البطل فسقطت في وسط الأجساد والهياكل الكثيرة الميتة دون عودة. وهنا صور القاص لنا كيف أن البطل ما

(1) قصة "الرجل الذي امتهن دراسة الكائنات البشرية"من مجموعة "كتابات تطمح أن تكون قصصاً"، 38-39.

زال يريد الاحتفاظ "بيده" ويتمنى أن تعود، لأنه يريد أن يقوم بمواجهة الهجمات التي تقوم بها مجموعة من "الغربان" فيريد من "يده" المساعدة لكي يواجههم، فكانت "اليد" في بداية الأمر تشعر بالخوف وتريد أن ينقذها من "الغربان"،لذلك عندما قال:-

((اليد: لا تدع الغربان تنهشني.

كانت يده اليمنى تتوسل إليه وترنو نحوه بألم بالغ.

البطل: آه.. ليتني أملك يدين، لأدفع عنك الشر... وأحميك من كل ضرر)).[1]

إلا أن هذه المحاولة والأمنية في إنقاذها لم تنجح، لأنه لم يعد يملك إلا يده اليسرى أي- يداً واحدةً-ولكنها لا يستطيع أن تفعل أي شيء، لأنه من الصعب حتى الدفاع عن نفسها، وإنقاذها من هجوم الغربان وقوتهم. وبعد سقوط "اليد اليمنى" وهجوم الغربان عليها أصبحت واحدة منهم أي: -

{اليد اليمنى = الغربان=العدوّ} فتحولت "اليد"في صورة بشعة إلى غراب بشع مليء بالثقوب ومليء بالديدان بكل أنواعها وأحجامها، كانت "اليد" آلةً غريبة تنتج الديدان النتنة، والبشعة وتنشرها في كل مكان.

ثم أدرك البطل مدى وحشية "اليد"، وأنه أدرك أنها لم تعد كما كانت في السابق، بل أصبحت كائناً قذراً وخائناً، لذلك فهو أيضاً وهو لا يريد عودتها أيضاً عندما قال:-

((البطل: آه.... يايدي اليُمنى الحقيرة... أبداً لم أدر أنك بهذا القدر من القذارة)).[2]

وعندما لم يجد البطل مساعدة من "يده" الخائنة هجم عليه "غراب" قبيح وحط على رأسه، وكان البطل في خوف شديد، وكان يشعر بالقلق، لأنه كان يراقب "اليد"

(1) قصة "الرجل الذي امتهن دراسة الكائنات البشرية"من مجموعة "كتابات تطمح أن تكون قصصاً"، 39.

(2) م. ن،40.

التي تحولت إلى "غراب" يهاجمه ويغدر به ويظهر ذلك. وفي حوار دار بين "البطل" و"الغراب" القبيح:-

((البطل: ماذا تريد؟

يجيبه الغراب، وهو يتلمظ...

الغراب: عينيك.

وينقر عينيه بوحشية، يصرخ من الألم.

البطل: فقط؟

يجيبه الغراب:

الغراب: لا... ثم الأشياء الأخرى)).[1]

هذا يدل على طمع وبشاعة"الغراب" الذي لا يكتفي بالعينين فقط، بل يريد المزيد من الأشياء وأن أخذ العين يعني أخذ النور وبصيص الأمل الذي يحلم به الثوار جميعهم لمقاومة الشر والعدوان ، وعندما لا يكون هناك نور أو أمل يعني الانطفاء والاستسلام والإخماد، من النواحي كلها.

ولكن القاص أراد أن يقول من خلال هذا البطل الذي يمثله أن الثورة ربما خسرت هذه المرة لأن الرياح أتت لصالح قوة الغربان، إلا أن المعركة لم تنته بعد والثورة لم تنهزم بعد بل يكون هناك لقاء ومواجهة ولابدّ من الانتصار ولا نكتفي فقط بالربح بل نريد الثورة وعندما نعود تكون أدوات الثورة قد اكتملت لدينا ونضجنا وننجح في النهاية.

أما في قصة "الجراد" فاستخدم القاص لفظة "المبيد" رمزاً وسلاحاً للمقاومة الذي يستخدم ضدّ هجوم "الجراد" على القرية وأهلها، لأنه يريد إن يقول أن ما أصاب القرية من الهجمات الجرادية لايمكن التخلص منها إلا من خلال وجود "مبيد" سريع المفعول والانتشار للقضاء عليه بصورة جذرية، أي أن الثورة التي تساوي

(1) قصة" الرجل الذي امتهن دراسة الكائنات البشرية"من مجموعة "كتابات تطمح أن تكون قصصاً"، 40.

"المبيد" هي الحل الوحيد للتخلص من قسوة الحكم الجرادي وظلمه وبشاعته الذي كان يقتل الناس ويفسد كل شيء في طريقه، مثلما فعل بالقرية وطبيعتها وأهلها. وهذا نجده في الحوار الدائر بين "ئاسوس" و"أمه" عندما كان يبحث عن "المبيد" للتخلص من "الجراد":-

((ئاسوس: لو... لو... أصل البيت... آه.. لابد..... أن أصل البيت... لابُد... لابدّ... لابد... وفي البيت صعق تماماً... حين أخبرته أمه...

أمه: المختار... مختار القرية أخذ المبيد.

ئاسوس: كيف؟... متى.... متى....

أمه: هذا الصباح... حين كنت ما تزال نائماً...

أمه: ما بك... ياولدي... هل أنت مريض...

سألته أمه بقلق..

لم يجبها، كان ذهنه، بل كيانه كله، مشغولاً بأمر واحد مَملُئاً به حد الفيض.

ئاسوس: لو لم ينهب ذلك الخنزير المبيد... آه.. آه...))..[1]

وكان "ئاسوس" مصراً على أن يعثر على المبيد من أجل القضاء على "الجراد" إلا أنه اكتشف أن "المختار" أخذ المبيد، وهذا يدل على مشاركة "المختار" مع القوى "الجرادية" في الدخول في القرية والقضاء عليها، لهذا أخذ المبيد لكي لا يقع في يد "ئاسوس"، لأنه إن وقع في يده لقضى عليهم بصورة تامة دون خوف أو رحمة منه.

أراد القاص ان يقول أن الثورة لابد منها لأنها هي المنقذ الوحيد، والطريق نحو الحرية والسلام، وهو يرفض الخيانة والغدر على حساب الوطن لذلك يجب تفضيل الموت على ذلك وإدانة كل شخص حاول أو فكرّ في أن يبيع نفسه، وأن يرضخ للقوة الظالمة.

(1) قصة"الجراد" من مجموعة "الجبل والسهل"، 153.

2- شخصيات رمزية:

أ: قصة: "الجبل والثعبان":

وفي قصة "الجبل والثعبان" استعمل القاص الرمز على مستوى اللفظ والتركيب، حيث رمز للأسماء المتحاورة وحقق بها وجوداً ترميزياً قبل الحديث أو الكلام الذي ينطق به. وأحداث هذه القصّة تدور حول الرحلة الطويلة من نضال ثوّار الشعب الكردي وعن كيفية سجن الثوار والمشاركين في التنظيمات السرية من أيام حكم النظام السابق وطرق تعذيبهم بصورة وحشية في داخل سجون النظام، والشخصيات تمثل قوى الشر والظلم وقوى النور والخير والحرية من خلال لفظتين هما "الثعبان"و"الجبل"، وهذه القصّة كتبت في شهر تموز عام" 1987" في بعقوبة ولم يستطع القاص نشرها في ذلك الوقت لعدة أسباب، وحاول مرات أن يهرب بها إلى أجزاء محررة في كردستان وأن ينشر تحت اسم مستعار. ولكن لم تنجح محاولته وضاعت القصّة إلى أن وجدها القاص في أحد الأيام في مكتبه ونشرها في 2010/8/1" في السليمانية. والحوار يبدأ في القصّة بين" الجبل "و"الثعبان" على هذا النحو:-

((مع الضربة الأولى المفاجئة والصاعقة. ندت منه آهة عالية، وأن أنيناً موجعاً مسموماً، انتشى لها "الثعبان" ايما انتشاء.. وانتفخت أوداجه وهو يقول بغرور:

الثعبان: ها؟ من الضربة الأولى، تتوجع وتعيط كالحرمة؟ ها ها ها... وأنت تسمي نفسك أو يسميك جماعتك الجبناء "الجبل"؟ لقد كانت مداعبة، مجرد مداعبة على سبيل التعارف حسب.. هاك.. هاك الثانية لتعرف من أنا.. و.. وخذ الثالثة لتتعمق بيننا المعرفة وتترسخ، من يدري لعلها في الخامسة أو العاشرة تتحول إلى

الصداقة.. وتغدو جديراً بصداقتنا بعد أن أطهرك من بذور الخيانة المزروعة فيك)).[1]

يصور القاص في هذه القطعة طريقة التعذيب التي يمارسها رموز النظام السابق في داخل سجونهم المظلمة، وهم يستمتعون بتعذيب الآخرين، وكانوا يريدون أخذ الأعترافات من السجناء عنوة من أجل العثور على التنظيمات السرية، وعلى كل واحد يساعد أويسهم في خلق الثورة آنذاك من قوات "ثيَشمة رطة" أو الخلايا والتنظيمات السرية في المدينة، وكل هذا العمل كان من أجل خنق الثورة التحررية ضد نظامهم وظلمهم.

ثم يصور القاص كيف أن"الثعبان" لديه طمع وجشع للحصول على مراتب أعلى والبقاء في الوظيفة لمدة أطول، وكيف أن الذين أعلى رتبة منه من المسؤولين الحزبيين وقوات الحرس القومي وغيرها من الفئات، وعدوه إذا استطاع أن يجعل ذلك الشخص الهزيل المعلّق بالسقف الذي سمى نفسه "الجبل" يعترف بكل ما ينسب له ويشي بأصدقائه فإنهم يكافؤونه ويرقّونه، وإن لم يفعل فحياته تكون في خطر وكذلك مهنته. ويقول :-

((لا تستهن به...إنه جبل.. جبل فعلاً ربما ليس بصلابته وصموده، ولكن بما ينغلق عليه من اسرار عن تنظيماته التخريبية وخفاياها.. من أفراد وأسلحة وأمكنة.. هي بالنسبة للقيادة أثمن وأغلى من كل ما تنطوي عليه جبال الدنيا.. من كنوز.. ومن مناجم الذهب وألماس)).[2]

يركز على أهمية ذلك الجبل، وهو رمز للنضال والثورة ومقاومة الظلم، و"الجبل" في الحقيقة هو المكان الأكثر أماناً ومحافظاً للقوات "ثيَشمة رطة" عندما كانوا يحاربون في القرى والجبال، وكانوا يختبؤون داخل الكهوف في الجبال والوديان، ولم يكن يهمهم قوة وصلابة الرجل بقدرما كان يهمهم المعلومات السرية

(1) الجبل والثعبان، 2.
(2) الجبل والثعبان، 3.

لديه، لذلك أراده "الثعبان" بأي ثمن، لأنه كان أثمن حتى من الذهب والألماس بالنسبة لهم. وفي حوار آخر دار بين "الثعبان" و"الجبل" عن اسمه، وهل اسمه "الجبل" أو لا؟ عندما قال:-

((طاب لثعبان، قبل الانقضاض عليه وانتزاع اسراره، ان يلهو معه ويداعبه. كما يداعب الهر فريسته قبل افتراسها، ما دام الفجر ما يزال بعيداً، فسأله وفمه ممتلئ بالبصل والتمر عن اسمه.. مع أنه يعرفه.. ضمن المعلومات الأولية التي زودوه بها.

فأجاب بوهن باد في نبرات صوته:

الجبل: شاخ.

الجبل: شا..خ..؟

انتفض ثعبان ملدوغاً، وكانت اللقمة الأخيرة التي دسها في حلقه تطفر من فيه فأسرع يدفعها إلى جوفه بمعونة "طاسة" اللبن الحامض قبل أن يختنق بها:-

الثعبان: أتريد أن تخدعنا حتى في اسمك ، وتكذب علينا ؟سيدي الأمر، أقصد رفيقي.. قال ان اسمك.. جبل..

الجبل: جبل في لغتكم.. أما لغتنا فهو شاخ..)).[1]

كان النظام السابق لم يكن يَعترف حتى بوجود قوم آخر يعيشون معهم واسمهم الكرد ولهم وطنهم ولغتهم وكانوا يستهزؤون بهم ويخنقون كل آمالهم. وفي حوار آخر دار بينهما:-

((الثعبان: لغتنا؟ لغتكم؟ ما هذا الهراء؟ من أنتم؟ من تكونون؟ من أي الأقوام؟ من أي العشائر؟ من أي الأعمام.. ها؟..ها؟..

ودس رأس البصل المملحة الملفوفة بالخبز الطري في جوف فمه، واستمر دون أن ينتظر جوابه على اسئلته المتلاحقة:

الثعبان: على أية حال.. سنرى إن كنت جبلاً حقاً.. أم.. فأراً.. بالمناسبة ماذا يدعى الفأر في لغتكم العجيبة الغريبة.. هذه؟ ماذا تسمونه؟

(1) م. ن، 3.

صوّب شاخ نحوه نظرات حادة ذات مغزى، تنطق بما يعتمل في نفسه:
الجبل: مشك.. ثعبان مشك!))[1]

واستمرت معاناة "الجبل" تحت رحمة" الثعبان" الذي واصل تعذيبه بشتى الطرق والوسائل إلا أن الجبل قاوم حتى النهاية، ولم يعترف، وصمد تحت ضغط الظلم والتعذيب، وبعد هذا الموقف من الجبل انهارت قوة الثعبان وكان يطلب من الجبل أن يعترف لكي يساعده على أن لا يطرد من العمل، ولكن "الجبل" لم ينفذ له طلبه، إلا أنه وعده أن يطلب له الرأفة والرحمة من أصدقائه الذين يواصلون الكفاح في الجبال من أجل الحرية، وبعد ذلك مات "الثعبان" تحت أقدام الجبل واستسلم لقوة النور والخير والحرية.

3- الرمز التاريخي:-

قصة: "اللات والعزى":-

"اللات والعزى"إحدى قصص الكاتب التي استخدم فيها الرمز، هذه القصة ترجعنا إلى العصر الجاهلي من خلال استدعاء رمز من رموز ذلك العصر، وهو اسما الصنمين في ذلك الزمان ليكون غلالةً ورداءً تأريخياً، كما قال القاص: في مقدمته للقصة أو ما نسجته القصّة لنفسها. وأصبح القسم بـ"اللات والعزى" مكرراً بصورة واضحة لدى شخصيات القصّة تأكيداً لما يعرفونه وما لا يعرفونه.

أراد القاص أن ينقل لنا عبر هذا التأريخ القديم ما يحدث في الحاضر الذي يصبح تأريخاً بعد مرور مدة من الزمن. وكذلك أراد أن يقدم لنا حالة من التشابه بين الإنسان العاجز والأصنام في جمودها وصمتها وعدم مبالاتها بما يحدث حولها، وخوفها من قول الحقيقة، وعاجز عن كسرهذا الصمت ومواجهته.

كانت عبادة الصنمين " اللات والعزى" معروفة عند معظم الشعوب التي سكنت شمال الجزيرة العربية، وتَعرف عليها مختلف عشائر العرب بسبب تنقلهم

(1) الجبل والثعبان، 4.

الدائم عن طريق التجارة في رحلات الشتاء والصيف بين مكة وأماكن اخرى، وكان العرب منقسمين في ذلك الزمان على قسمين، في مسألة العبادة منهم من كان يعبد الهياكل، وهم عبدة الكواكب، إذ قالوا بألوهيتها، والقسم الثاني كانوا يَعبدون الأوثان، إذ سموّها آلهة. والذين كانوا يَعبدون "اللات والعزى" من القسم الثاني. لأن أغلب العرب في الجاهلية كانوا وثنين يؤمنون بقوى الكواكب أو بمظاهر الطبيعية، أو يؤمنون بقوى خفية في بعض الجمادات والنباتات والطير والحيوان.[1]

أما من هي "اللات والعزى" ومن هي طقوس عبادتهما، فهما كانتا من أعظم الآلهة التي عبدها أهل مكة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وقد كانتا طرفين في الثالوث الإلهي الذي يجمعهما مع "المناة". وكانت العزى في المرتبة الأولى ثم "اللات" ثم "مناة".

وحسب رواياتهم وأخبارهم اول من اتخذ "عزى" إلهاً وعبده هو"ظالم بن أسعد"، وأن "عزى" كانت لغطفان، وهي شجرة بوادي نخلة شرقي مكة، وقد قطعها"خالد بن الوليد"، وكان "اللات" رجلاً يلت سويق الحاج، يعني يعجن العجين للحجاج، وهي كلمة عربية يستخدمها أهل البادية فـ"السويق" هو العجين، ولت السويق هو خَلطه بالسمن وعَجنه، فالظاهر أن"اللات" كان رجلاً محسناً يعجن العجين للحجاج ويطعمهم إكراماً لهم، فلما مات عظموه وعكفوا على قبره ثم جعلوه إلهاً.[2]

وكان العرب يحلفون بتلك الأصنام أو يحلفون بـ"اللات"، وغالباً ما يعطفون على"العزى" أثناء القسم، أي يقولون و"اللات والعزى". ولكن بعد مجيء رسول الله "محمد"- ﷺ- الذي قام بالدعوة إلى عبادة الله الواحد سبحانه عزّ وجل ودعا إلى نبذ

(1) ينظر: تأريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، ط24، القاهرة، 2003، 90.
(2) ينظر: تأريخ الأدب العربي، شوقي ضيف،90-91.

عبادة الأصنام وهدم الاصنام في مكة كلها،ومنها هدم بالإضافة إلى "اللات والعزى".[1]

إن الذي يربط قصة القاص"اللات والعزى" مع هذا التأريخ القديم في الجاهلية، هو حالة الصمت والسكوت والخوف في عدم إظهار الحق والنور لدى البشرية ومعرفتهم بوجود الحقيقة، ولكن سكوتهم وخوفهم كان نتيجة خوفٍ عظيم يشعرون به في داخلهم ويسلبهم الحرية بالبوح والكلام عن ما هو الحق وماهو الباطل. لأنهم كانوا خاضعين بإرادتهم ومستسلمين لقوة الشر والظلم.

جسد القاص صورة البطل وهو"الحرّ بن شمس العّلام" ذلك الرجل المشهود له بالقيم، والرصانة والكرم والأخلاق العالية الذي كان، في خدمة الحجاج وأهل مكة جميعاً. إلا أنه يُحبس ويُظلم من قبل قوة الشر أو هؤلاء الذين ينتمون إلى تلك القوة الظالمة ويخدمون تلك القوة دون أن يكون هناك سبب وراء فعلتهم هذه.

إن هذا المشهد مشهد القبض على الناس الأبرياء وحبسهم بات أمراً جلياً ومكرراً لكثرة ما يراه أهل الجزيرة يومياً. وهذا يربطنا بتلك الصورة أو المشهد الذي كان يعاني منه الشعب العراقي بصورة عامة والكرد بصورة خاصة عندما كان يقتاد أبناء الوطن إلى السجون والمعتقلات يومياً بحيث لم يجرؤ أحد على السؤال عن السبب الكامن وراء القبض عليه. ومن الوسائل التي كان النظام يتبعها مداهمة البيوت في المدن، لاسيما في المحافظات الكردية عن طريق إخبار أحدهم أن لتلك العائلة أو لأحد أفرادها علاقة بالتنظيمات السرية، أو بالقوات "بيَشمةرطة"، أو كتب أحدهم على جدران بناية أو مدرسة شعاراً، أو شعراً، أو أية كلمة أخرى، حتى لو لم تكن تلك الكلمة لها علاقة بالسياسة وبشعارات وطنية وقومية، كانوا يلقون القبض عليه وعلى عائلته، وكان مصير هذا الشخص أو هؤلاء هو الاختفاء والسجن لمدة طويلة،

(1) ينظر: كتاب الأصنام، أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق: أحمد زكي باشا، ط3، دار الكتب المصرية، مصر، 1995، 22-24، و 101-102. وينظر: إنترنيت:15-2-2012 www.islamweb.net و www.ar.wikipedia.org .

أو الموت في أغلب الأوقات. ولم يكن أحد ليجرؤ على السؤال لماذا أخذ فلان؟ أو ما هو السبب وراء سجنه أو اختفائه؟ حتى عند مواجهة الموت لم يكن من حق العائلة أن تقيم عزاءً.

هذه الحالة مشابهة مع حالة البطل "الحّر شمس بن العّلام"عندما اقتاده الجند إلى السجن، ولم يجرؤ أحد على أن يسأل عن سبب حبسه، لأنه على الرغم من طيبة هذه الشخصية، وكرمها، ومساعدتها لأهل مكة، ومساعدة الناس والدفاع عن المظلومين الذين ظلمهم النظام الطاغي والظالم، كذلك مساعدتهم بالفكر والعقل، أو عن طريق المال، ولذلك أصبح بيته بيتاً للجميع ومكاناً لهم لحل مشاكلهم. مع كل هذا يظلم ويقتاد إلى الحبس، هذا يدل على أنه لم يبق هناك الأمن والأستقرار في الجزيرة عندما قال الجميع في سرّهم وداخلهم:-

((يا ناس أقرأوا على بلدكم وعلى أنفسكم السلام)).[1]

ومِمّا زاد الهم والخوف لدى البطل هو السكوت الذي خيم على الجميع ونال منهم، لأنهم لم يكونوا بهذا الشكل من الضعف، من قبل مجردين من الإحساس، والحس بالمسؤولية والمودة والوفاء تجاه بعضهم بعضاً، بل كانوا أكثر اندماجاً وتوحداً وقوة عندما قال في حوار داخلي مع نفسه:-

" الحرّ شمس بن العّلام: الخوف دودة شرهة، نهمة، لاتقطع أوردة القلب وشرايينه حسب، إذ تسكنه إنما تقرض وتأكل كل ما يشده إلى الآخرين من وشائج وذكريات وآمال وتأريخ و وجود".[2]

هكذا وصف حال الناس حين أصابتهم الخوف، لأن الخوف لا يقطع أوردة القلب فحسب بل عندما يسكن داخل الإنسان يصبح عُشه ويتمسك ويتعلق به بقوة، و بذلك ينقطع كل العلاقات والأحاسيس التي تربطه بالآخرين و كل ماحوله، وأراد أن يصور القاص كيف تتغير حال الدنيا والإنسان من الشجاعة إلى صورة تتسم بالخوف

(1) قصة"اللات والعزى"من مجموعة"الأعمال القصصية/المجلد الأول"،150.
(2) م.ن، 150.

والجبن وذلك حين يصبح الخوف وباءً منتشراً يُعاني منه الجميع. وفي حوار آخر للبطل مع نفسه أراد القاص أن يعطينا الأمل وسط هذا الظلام والتشاؤم لكي يخفف حجم المأساة عندما قال:-

((ستتغير الدنيا، لابد أن تتغير... ويعود إلى الأشياء جمالها.. بعدما يزول عنها قبحها الذي فرضته عليها الظروف الحالية.....

ولكن.... واستطرد بغم كبير...

بيد أنها لن تتغير من تلقاء نفسها... لابدّ أن تتغير بفعل فاعل "وصرخ... أجل.. لابد من فعل فاعل" وكرره بصوت أعلى..)).[1]

إن التحرر من الظلم والقيود يحتاج إلى قائد، وهذا القائد يجب ان يكون شخصاً شجاعاً وقائداً ووفياً لوطنه وشعبه يواجه كل ما يُعيق طريقهم لكي يتحرروا، وينالوا حريتهم وهذا الخيط من الأمل لايزال موجوداً في نفسية البطل ولكنه يحتاج إلى العمل والتوحد الكلي من أجل مواجهة قوة الشر، وإلا لن تتحقق أحلامهم إذا استمر هذا الخوف.

وفي حوار دار بين "عون بن سعفان" أحد سكان أهل الجزيرة مع شقيق زوجته"عمرو بن أسود الكلبي"عن حال"الحرّ بن شمس العّلام" ولماذا اقتادته قوى الظلم، أراد القاصأن يقول في وسط هذا الصمت الرهيب الذي خنق أصوات الجميع في الجزيرة. هناك رجل اسمه "عون بن سعفان" كان لديه الأسئلة نفسها، ولكن إلحاحه وشكه كان أقوى من أن يصمت، فسأل تلك الاسئلة ولكن السؤال كان بطريقة تكاد تكون ساكتة ومسموعة في الوقت ذاته، لأن الطريقة التي صورها القاص توحي أنها مسموعة وهي فضول ذلك الشخص وإلحاحه في السؤال بصورة عكسية داخل رأسه ورغبته في معرفة ماذا حصل. كان هذا هو الدليل على وجود المحاولات لخرق الصمت، ولكن طريقة السؤال وطرحه يدل على السكوت والخوف أكثر من

(1) قصة"اللات والعزى"من مجموعة"الأعمال القصصية/المجلد الأول"، 151.

صوت مسموع وجريء، لأنه همس في أذن "عمرو بن أسود الكلبـي" شقيق زوجته وبصوت منخفض أي- الصوت الذي يكاد أن يسمع أو لا يسمع- في حوار بينهما:-

((عون بن سعفان: ترى لماذا اقتادوا "شمس بن العلام"؟

تشاغل الكلبـي بقملة.. فوق جلده، راح يحاول اقتناصها، ولكن الآخر لم يتركه:

عون بن سعفان: يا عمرو يا عمرو أسألك.. فأجبني....

عمرو بن أسود الكلبـي: و... و ماذا سألت؟ لم أسمعك... واللات والعزى لم أسمعك

عون بن سعفان: "العلام"! "الحرّ العلام"... لماذا اقتادوه... إلى الحبس؟

عمـرو بـن أسـود الكلبـي: لـم أره. هـذه القملـة تثقـب جلـدي.... لا أدري كيـف أصطادها... وأغرق نفسه في حركـات هستـرية... يرفع رداءه إلـى فوق رأسـه حتـى بان أسته.

عون بن سعفان: إهدأ يا خال أولادي... إهدأ...

عمـرو بـن أسـود الكلبـي: هـذه القملـة سـتفرغ عروقـي مـن الـدم... لابـد أن أسحقها.... باللات والعزى..

عون بن سعفان: استر عورتك يا عمر... هذا مُشين.. يا رجل.. أنزل رداءك..

عمرو بن أسود الكلبـي: آهـا.. لقد أمسكتها.. هذه.. البدينـة اللئيمـة.. مصاصـة الدماء..))..[1]

يتضح في الحوار بينهما أن "عون بن سعفان" يريد معرفة السبب وقد فتجرأ وسأل، ولكن السؤال كان فيه خوف كبير، لأنه اقترب جداً من "عمرو بن أسود الكلبـي" ولكن "عمرو بن أسود الكلبـي" كان منشغلاً بأمر اصطياد القملة التي شغلته، أي حاول الهرُوب بصورة أخرى من الإجابة عن سؤاله، لأن أمر القملة لم يكن أمراً مهماً إلى هذه الدرجة بحيث يجعله يهرب من الإجابة.

(1) م. ن، 151.

واستخدام القاص في الحوار القسم بـ"اللات والعزى" رمزٌ ودلالة على الصمت، لأنهم أصبحوا مثل الحجر الذي لاحياة ولاحركة فيه. وهروب "عمرو بن أسود الكلبي" من الاجابة وخوفه منه دليل على الصمت أيضاً ونجد في مقطع يستمر الحوار بينهما:-

((عون بن سعفان: لقد سألتك... يا...

عمرو بن أسود الكلبي: لم أره. لم أر شيئاً.. لقد شغلتني القملة عن كل ما عداها. فلم أر شيئاً..

عون بن سعفان: ولكنك رأيته... مثلما رآه المجلس كله...

عمرو بن أسود الكلبي: إذا كان المجلس قد رآه كله، فلماذا لا يفتح أحد منهم فاه عداك....بل...بل...لماذا لاتغلق أنت فاك.حالك حالهم.....

عون بن سعفان: ولكن.....

أسرع الكلبي يسد فاه: حلفتك باللات والعزى أن تسكت... أشفق عليّ يا زوج أختي.. فلست قادراً على إعالة أختي.. إذ تترمل ولا تربية أولادها اذ ييتمون..))..[1]

استمر "عمرو بن أسود الكلبي" بالهرؤب وعدم الإجابة عن السؤال الذي سأله عن أخذ "الحرّ بن شمس العّلام" وقال إنه لم ير شيئاً لأنه كان مشغولاً بالقملة، ومع إنشغاله بها فقد رأى ما حصل مع "الحرّ شمس بن العّلام"، ثم غير قوله عندما قال "لم أر شيئاً" ثم حلف عون بن سعفان كي يسكت ولايسأل، حاله حال الجميع، وهذا دليل أخر على عدم الإجابة، ولكن "عون بن سعفان" قال له إنه رأى الأمر مثل الجميع ولم يكن بعيداً عنه وأمر القملة ليست بالشيء المهم حتى يشغله لهذه الدرجة.

ان "عون بن سعفان" كان هو الوحيد الذي يسأل، و"عمرو بن أسود الكلبي" يجبره على أن لا يتكلم مثل الجميع، يعني عليه أن يختار مثل الكل السكوت والصمت، ويجعل من نفسه لم ير أي شيء حصل أمامه. لأنه ليس مستعداً ليتحمل مسؤولية أخته وأولادها عندما يموت هو، لأن جزاء الكلام وقول الحقيقة والسؤال

(1) قصة"اللات والعزى" من مجموعة"الأعمال القصصية/المجلد الأول"، 152.

عنه في ذلك الزمان كان هوالموت، أي كان الموت هو مصير كل واحدٍ يريد أن يسأل أو يستفسر عمّا حصل مع "الحرّ شمس بن العّلام".

أن استمرار"عمرو بن أسود الكلبي" بقول ذلك القسم الشهير "اللات والعزى" دلالة على استمرارية الإنسان في الظلام واستسلامهم لقوى الشر، والقبول بالذل والظلم، لأن هذا القسم في الدين الإسلامي يعد رمزاً من رموز الكفر والمكابرة وإنكار وحدانية الله سبحانه وتعالى، إذن استخدام ذلك القسم في الاسلام يدل على استمرار الضلالة، والوثنية، وخلق الشرك لله تعالى في العبادة.

وكلّما كان"عون بن سعفان" يسأل ويحاول الوصول بإصرار إلى الحقيقة كانت الإجابة تأتي بإسكاته بهذا القسم عندما يقال له "اللات والعزى لانعرف أو لا ندري أو لم نر، أو لم نسمع" كأن الإنسان سلبت منه حواسه من السمع والبصر حتى أصبح بلا عين، وبلا أذن لكي يسمع ويرى الحقيقة بنفسه.

إن اختيار القاص لاسم "عمرو بن أسود الكلبي"يعود في حقيقة الأمر، إلى أن هذا الشخص كان مؤرخاً وعالماً بأنساب العرب وأخبارهم ، وأيامهم، ووقائعهم، ومثالبهم، واسمه الكامل هو"هشام بن محمد بن السائب بن بشر بن عمرو الكلبي"المعروف "بابن الكلبي" توفي سنة "204هـ" وسنة الولادة غير معروفة. كان شخصاً عالماً وذكياً وملماً بكل ما كان يدور في زمانه، وله قدرة عجيبة وذكاء خارق في حفظ الأشياء، ويعتبر المرجع الأوثق في علم الأنساب.[1]

لعل سبب اختيار القاص لهذه الشخصية يعود إلى أن العلماء والمؤرخين، لاسيما "ابن الكلبي" المعروف بذكائه، وحفظه للأشياء، والمواقف، هل من المعقول أو من الصواب أنه لم ير، ولم يسمع ما حصل لـ"الحرّبن شمس العّلام"، وهذا يدل بصورة أخرى على أن الشخصيات المثقفة والمتعلمة أصبحت متساوية مع عامة الناس الذين ليس لديهم إلا الأقاويل والأحاديث المتنوعة وغير الصحيحة يتحدثون بها وكلهم اختاروا الصمت من أجل أن لا ينتهي مصيرهم بالموت.

(1) كتاب الأصنام، أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق: أحمد زكي باشا، 12.

حاول القاص بعد ذلك أن يكشف حقيقه أسباب اعتقال بطل القصّة عن طريق شخصية جديدة وهو "سلمان أبو يوسف الفهدي" الصديق المخلص والمقرب والوفي لـ "الحرّ شمس بن العّلام" سمع ما حصل مع لصديقه عن طريق التُجار القادمين من مكة.

هذه الشخصية كانت تعيش في السابق في مكة، مثل صديقه "الحرّ" لكنه كان مختلفاً عن باقي سكان أهل مكة آنذاك، لأنه كان شخصاً مفكراً يريد الحرية. ولم يكن العيش في مكة مناسباً له لأنه رأى فيها الكثير من الظلم والقيود حول آرائه، لذلك قرر الهجرة إلى البحر، حيث فيه الحرية والانطلاق ويستطيع مواجهة البحر وأن يغوص في أعماقه باحثاً عن اللؤلؤ الثمين ليبيعه وليؤَمن لُقمة العيش له ولعائلته.

لقد واصل الصديق البحث عن "الحرّ" من خلال عم "الحرّ شمس بن العّلام" وكذلك من خلال خاله ولكنه لم يحصل على أية نتيجة ممكنة توصله إلى صديقه. وكل هؤلاء الأشخاص كانوا متمسكين بعدم معرفتهم مصير "الحرّ" والذي حل بهِ. وكانوا دائماً يرددون القسم بصورة مستمرة، كما يرى ذلك في الحوار الدائر بين عم "الحّر" وصديقه أولاً:-

((شيخ عمران: الحرّ.. ابن أخي؟..... حبسوه ؟ لماذا؟

سلمان أبو يوسف الفهدي: لا أحد يخبرني. ولذلك قصدتك يا عم... لعلك

شيخ عمران: لا أدري، واللات والعزى.... لا أدري....

ثم أضاف ومايزال يسد فتحة الباب الصغيرة... بجزعه الهزيل المتقوس:

شيخ عمران: لابد أن يكون قد أتى ما استوجب الحبس. فولاة الأمر أدرى منا جميعاً بالحال وأعرف بالخفايا.. والأسرار.. وحتى النوايا. وهم واللات والعزى لايحبسون أحداً، دون وجه حق... واللات و..)).[1]

وثانياً: نرى ذلك في حوار الصديق مع خال" الحرّ":-

(1) قصة "اللات والعزى" من مجموعة"الأعمال القصصية/المجلد الأول"، 153.

((الخال: الحرّ؟ من هذا الذي تُسميه بالحر...؟ واللات والعزى لا أعرف أحداً بهذا وإذا أطاع السلمان وشرع يبتعد عنه بلا كلمة، صاح به الخال.

الخال: و... نصيحة. لوجه اللات والعزى.....انصرف لشؤونك الخاصة... وعُد من حيث أتيت. فما من عاقل يركب المخاطر من أجل أحد.. وإني أخاف عليك واللات والعزى... أكثر مما..)).[1]

إن كلا من عمّه وخاله كان بجانب السلطة وقوى الظلم، وكانا خائفين من عواقب ما يفعلانه عندما يورطان أنفسهم بمشاكل لا نهاية لها، لأن كلا منهما أراد الابتعاد عن هذا الموضوع. وكان العّم "الشيخ عمران"، لاعتقاده أنه لابد من وجود سبب لما حصل مع ابن أخيه، وإلا فأن السلطة أو القوة الحاكمة والولاة هم أحسن الناس وأعرفهم بحال الناس، فلايقدمون على أمر كهذا، إلا إذا لم يكونوا متأكدين من صحة ما فعلوه.

أما خاله فكان من التجار ومن أصحاب المصالح المشتركة مع الولاة في التجارة وسير القوافل في ذلك الوقت. لذلك لايهتم بما جرى مع "الحرّ" لأنه يريد المحافظة على الشخصية مع هؤلاء فلايريد أن يتدخل ويقطع هذه الصلة التي تربطه بهم. وأنه ليس بالشخص الساذج أو عديم المسؤولية حتى يوقع نفسه في التهلكه، ويجعل مصالحه في مخاطر كبيرة، وقال إن الذي يفعل شيئاً كهذه إنه مجنون ليرمي حاله في التهلكة وفي مصير مجهول.

واستمر الصديق بالبحث عن سبب حبس صديقه "الحرّ" إلى أن دار حوار بينه وبين زوجة "الحرّ" وعن طريق هذا الحوار حصل على رسالة، تركها"الحر"، لصديقه الوفي، وكتبها قبل وقت طويل من حبسه، وشرح له ما كان يفكر به وما يشعر به من حزن وأسى على حياته، وعلى عيش الناس في مكة وقبولهم بكل شيء، والخوف والسكوت عن حقهم، وكم هو نادم لأنه يفكر منذ زمن بعيد بهذه الأمور، فهو يريد أن يتخلص من خوفه، ويريد أن يثور ضد النظام الطاغي والظالم بحق

(1) م. ن، 153.

الإنسانية. لأن مكة أصبحت بالنسبة له رمزاً للطغيان والاستبداد ويريد أن يلجأ إلى البحر الذي يمثل له الحرية والانطلاق.

ولقد صور القاص في هذا الحوار الذي دار بين "سلمان"الصديق الوفي وبين "حليمة"، زوجة الحر كيف كانت تشكومن فراق زوجها وكيف كشفت أمر الرسالة:-

((حليمة: اللات والعزى لم يفعل شيئاً.. لم يبدر منه أي شيء!

وماذا يُمكن أن يفعل أو يبدر منه يا أخي الفهدي، وأنت أدرى الناس به وبرجاحة عقله ورصانته واتزانه.. إنه واللات والعزى خير الناس... و.... و....

سلمان أبو يوسف الفهدي: أختاه.. هلا كففت عن ترديد هذا القسم المقرف...

حليمة: ال... ال... المقرف؟

تساءلت وقد جحظت عيناها....

حليمة: أتكون أنت الآخر مثله؟

سلمان أبو يوسف الفهدي: ماذا تعنين....؟

حليمة: لقد بات في الأيام الأخيرة لايطيق سماعه، أخذ يضيق به ضيق الإنسان الحي بالقبر...

قال سلمان مبتسماً ومشفقاً:

سلمان أبو يوسف الفهدي: ولكنك عدت.. وما زلت تعودين..!!

حليمة: تعرف يا أخي ليس يسيراً على الإنسان أن يترك ما آلف عليه من مقدسات منذ فتح عينه على الدنيا..))..[1]

كشف هذا الحوار كيف كان"الحر"يفكر بطريقة مختلفة عن باقي سكان أهل مكة وكيف كان لايحبذ فكرة القسم بهذين الصنمين، فهو لم يكن يطيق سماعه مثل صديقه، فهو كان مثل الإنسان الحي عندما يضعونه داخل القبر ويضيق عليه الهواء فلا يعود بمقدوره التنفس، هكذا شرحت الزوجة حال زوجها، وقامت بتبرير قولها مرات عديدة للقسم لأنها تربت على تلك القيم والمقدسات أي- بالنسبة لسكان ذلك

(1) قصة"اللات والعزى"من مجموعة"الأعمال القصصية/مجلد الأول"، 154.

الوقت-. وأن من الصعب على الإنسان أن يغير في فترة زمنية قصيرة عاداته التي تعود عليها منذ زمن طويل، وأن يتحول إلى شخص يترك ما يؤمن به وما تعّود عليه. ويترك هذا الأمر للزمن لأن الزمن كفيل بتغيير الأشياء، أما الحوار الدائر حول أمر الرسالة التي تركها "الحرّ" لصديقه فدار بين الزوجة وصديق زوجها هكذا -:

((حليمة: أخي الفهدي... مهلاً.. فقد تذكرت أمراً..

توقف الرجل.. بينما راحت المرأة تهمس في أذنيه:

حليمة: ثمة رقوق أخفاها الحر وأمرني بإرسالها إليك.. أما وقد حضرت.. فانتظر آتك بها.

خرجت إلى فناء الدار، نحو البئر التي تنتصفه:

حليمة: في البئر؟ أخفاها في البئر؟)).[1]

وشرح في الرسالة أنه اتخذ قراره بترك الخوف الذي يقيده، كما يظهر ذلك فيما يأتي:-

((سأقهر الخوف الذي أقعدني وأنحره... وإذ يأتي الصباح.. يأتيني ببحر من الأسئلة تتقاذفني أمواجه، تلطمني تياراته... وكلها تنبع وتستقي من مستنقع واحد... لتصب في مستنقع آخر، أشد منه نتانة واسنا مستنقع الذل والخوف من التغيير.. تنفس هواء نقي خارج أبخرته التي تخنق الأنفاس)).[2]

يتبين من هذا الحوار أن البطل أخذ قراره بترك الخوف والذل الذي يعيشه وبفتح ذراعه للحرية، كحرية أمواج البحر. وهذا دليل على أن البطل مؤمن بالنصر ولديه الأمل بالثورة والانتصار والتغيير نحو مستقبل أفضل، وكذلك يريد أن يثور على تلك المعاني والمضامين التي تُحد من قدرة الإنسان. فيقول في مقطع آخر من الرسالة:-

(1) م. ن، 156.
(2) قصة"اللات والعزى"من مجموعة"الأعمال القصصية/المجلد الأول"، 156.

((أدركت ماذا يعني أن تضيق على الإنسان الأرض والسماء والفضاء والكون و الهواء.. بحيث لايرى... أينما أدار وجهه... وكلما فتح عينيه.. وحتى عندما يغمضهما، سوى حجرين منحوتين برداءة. كل ما فيهما ينطق بالقبح والغباء والبلادة... ولايسمع سوى اسميهما.. يترددان على كل لسان... تلوكهما كل شفة... ويجترهما كل فم... آه... ما أشد قسوة ذلك ما أرعبه !! آه.))..[1]

صور نفسيته التي كانت تشعر بالضيق الشديد ولا تجد أي مكان لترتاح فيه فلا تشعر في الأرض والسماء بأنها حُرة طليقة. ونصل إلى أن كل ما فعله بطل القصّة كانت الفكرة الحرية والثورة، وأراد أن يتخلص من خوفه ورعبه من هذه الفكرة، وأراد أن ينبه أهل مكة أنهم يعيشون في دائرة مغلقة لا سبيل للخروج منها إلا بالثورة، وعدم الخوف والاستسلام، بل عليهم أن يتكاتفوا ويقفوا جميعهم ويبدؤوا من الخطوة الأولى على الطريق الصحيح.

إلا أن النهاية كانت بصورة مأساوية إذ لم يستجب أحد لنداء "الحرّ" وصديقه "سلمان"، لأنهم كانوا غارقين في الصمت والخوف والجبن. إلا صديقه "سلمان" الذي استمر في البحث عن صديقه حتى اللحظة الأخيرة، ففي حوار مع "أبو هند" صاحب الخمارة الذي رأى "الحر"،وهو يشرب عنده الخمر حتى يسكر وينسى حاله وهمومه:-

((أبو هند: اذا كان سكره في المرة الأولى شفيعاً له.. فما شفيعه في المرة الثانية... وهو لم يحتس بعده قطرة واحدة:

وضرب كفا... بكف... وهو يقول:

أبوهند: خسارة فادحة أن يذهب رجل مثل الحر..إلى التهلكة بقدميه..ضحية فعل صبياني..طائش... اللات والعزى....

(1) م. ن، 158.

سلمان أبو يوسف الفهدي: أمسك لسانك عن الأساءة إلى الرجل..وإلى فعلته الرائدة..وغادره.. بسرعة... متوجهاً إلى حيث يقبع الحر.. لعله يستطيع لقاءه بينما أضاف أبو هند:

مجنون... واللات والعزى... أنت أيضاً.. مجنون.. لا تقل عنه جنوناً وحمقاً)).[1]

انتهى سؤال "سلمان" لـ "أبو هند"، لأنه مثل البقية أقسم على أن "الحر" فعل أمراً لامبرر له ودافع "سلمان" عن صديقه"الحرّ" وعما فعله من موقف فيه الشجاعة، فهو يكون بهذا رائداً في اتخاذ موقف مثل هذا الموقف فترك "أبو هند" ورحل إلى حيث يوجد فيه الصديق ليسانده في موقفه وآرائه إلا أنهم واجهوه بالتهمة نفسها فعايروه بالجنون. إذن ليس هناك أي اختلاف بينهما في تفكيرهما، لأن ما يقولانه ويؤمنان به ليس إلا مجرد حماقة بنظرهم.

(1) ن، 164.